د.حكيم دهيمي

الدرجة العلمية: استاذ محاضر بجامعة عباس لغرور خنشلة

البريد الالكتروني: hakim.dehimi@yahoo.fr

واقع اللغة العربية في الجزائر بين مؤثّرات الثقافة الفرنسية وموقف المؤسسات الرسمية.

مقدمة:

تعكس اللغة العربية هويّة المجتمع المتداولة بين أفراده وتقدّم خلاصة عن إرثه الحضاري وتطلّعاته نحو المستقبل، و دون ادنى شكّ فإنّ اللّغة هي حامل فكر الامّة وبعدها الحضاري، لذلك تقاس سيادة الأمم وحريتها بتمكّنها من ناصية لغتها محافظتها عليها مجابهة لمتطلّبات الرّاهن الذي تعيشه وتحفظ من خلالها تراثها الفكري والأعمق من هذا كلّه، أنّ اللغة محدّدة للانتماء وتقي الامم من الإنصهارفي لجاج التيارات الثقافية الوافدة.

تزداد الأمم استمساكا بلغاتها في الظروف المحرجة العصيبة ، ودون ريب أن العصر الذي نعيشه هو عصر لا يسلّم إلاّ بمنطق القوي المكتسح، العابر للقارات بنمط تفكيره و أدوات انتاجه، فليس عصرنا غير سيّادة للنّموذج الغربي ثقافة واقتصادا وتفكيرا، وبالمختصر المفيد هو عصر "الأمركة"، أمركة السلوك و أمركة الانتاج و أمركة نمط التفكير ، ما جعل كثيرا من الدول والأمم- التي تحرص على استمرار ميراثها التليد - تتّخذ لنفسها أساليب الوقاية من كل وافد يهدّد مكامن قوّتها ويعرّض مستقبل ابنائها للخطر والدمار ، عاقدة في الوقت نفسه كلّ عزمها للحفاظ على لغتها الأم ولهجاتها من التلاشي والاندثار، موفّرة كلّ أسباب القوّة ضمانا للصمود في وجه العاصفة، دون تقصير أو وهن أو إرتخاء، ودون أن يكلّفها ذلك كلّه أدنى إحساس بالنقص أو شعور بالعار إزاء تاريخها المجيد ورغبتها في ارتياد آفاق المستقبل.

لئن كان هذا حال يفيد التعميم، ويكشف عن طبيعة علاقة الحب والاحترام بين الأمم ولغاتها، فإنّ الاوطان العربية- على شساعة أقطارها وكثافة سكانها وغزارة إرثها و غنى مشاربها - لا تزال اللّغة العربية بوصفها مشتركا أصيلا بين شعوبها تحيا الغبن بين ابناء جلدتها، ناهيك بين اعدائها التاريخيين، فما من عام يمضي إلاّ وتسجّل القهقرى والتراجع عن المواقع الريّادية في البحث التي كان يتوجّب ان تحتلّها دون منازع.

نصّ المداخلة:

اللغة وعاء الفكر، " إذ تأخذ بنصيب من الإيحاءات الذاتية و الخاصة بفكرة الوطن والأسرة والدين، وسائر العناصرالتي يسميها علماء الانثربولوجيا بإسم الثقافة" (مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد الأدبي،ص:145) وحافظ التراث ومشكّل أساسي للهوية ، على الرّغم ممّا يشاع من مفاهيم تكتفي بجعلها أداة للتواصل والتخاطب، نافية صلتها بالعقيدة والفكر و التاريخ، كما لو أنّ الانسان يقدر أن يحيا منفصلا ومنفصما عن لغته ، ولعمري أنّ طرحا بهذا النّظر إنّما يهدف إلى استئصال روح اللّغة الذي يسري في فكر الأمة وثقافتها وعقيدتها وتراثها الأصيل، فليس للإنسان من وجود يسكنه غير اللغة ، ولا من فضاء يلجا إليه حين تشتد به العواصف من كل صوب غير فضاء اللغة. لأنّ" اللغة والفكر وجهان لعملة واحدة"(المهدي فضل الله،1985،مدخل إلى علم المنطق،ص:45)

العربية بصفة خاصة لغة مستهدفة من أكثر من نواح كثيرة ،أكثر من أيّ لغة أخرى في العالم ، ولعلّ أسباب ذلك كثيرة أهمّها:

إنّ العربية تمتلك صفات نوعية تجعل منها مستوعبة لكل ثقافات الأمم وعلومها، والتاريخ الانساني يقدّم حججا دامغة على قدرة اللّغة العربية في استيعاب ثقافة الفرس واليونان والروم، بل إن فضلها في التمكين لثقافة الفرس من الانتشارلا ينكره دارس موضوعي، في مرحلة التمازج الثقافي بين العرب والفرس في مرحلة من مراحل التاريخ العربي، ومثل هذه الحقيقة تجعل الأمم الكبرى تتّخذ الحذرالشديد من اللغة العربية ، وتبذل الغالي والنفيس كي تبقيها ضمن منطقة الظلّ دون أن تبرحها .

انتبه طه حسين إلى هذه الحقيقة منبّها:" إنّ لغتنا العربية لا تدرس في مدارسنا ، وإنّما يدرس فيها شيئ غريب لا صلة بينه وبين الحياة، ولا صلة بينه وبين التلميذ و شعوره وعاطفته"(طه حسين، 1968،في الادب الجاهلي،ص:7)، وهو الموقف نفسه الذي جعل بعضا من الدارسين للغة العربية والمهتمين بشأنها يدّق ناقوس الخطر المحدق باللغة في زمن تحدّيات العولمة الساحقة لقيّم الأمم

وخصوصياتها، إذ يقول أحدهم: " اللغة العربية تعيش اليوم في خضّم متلاطم من أحراش العامية و تخوض حرب البقاء المشروع على الرّغم ممّا تواجه من صوّر التحدّي، لا سيّما عندما يتشبّع النّاس بالثقافة العامية ويعيشونها ويعجبون بها"(مرزوق بن تنباك،2005، اللغة العربية في القرن الواحد والهشرين ص:77-78)، و لئن كان خطر تهجين اللغة العربية وتعطيل رواجها مرتبط باستخدام اللّغة الدارجة في شتّى مناحي الحياة، فإنّ اللّوم في ذلك يعود –أساسا- إلى الجهات الرسمية في الدولة كما يرى ذلك عثمان سعدي فيما يتعلّق بوضع العربية في الجزائر، محمّلا ما آل إليه وضع اللغة العربية في الجزائر سلطات البلاد التي:"أعاقت في كثير من المرات تطبيق قانون تعميم استعمالها " (عثمان سعدي ، تصريح لجريدة الخبر،2013/12/21).

إن جازأن نذهب مذهب عثمان سعدي في ربطه بين حال تعميم اللغة العربية وانتشارها في الجزائر ومسؤولية الدولة في ذلك، بوصفها ضمير الأمة الحي الذي يحرص مصالحها العليا، فإنّه من باب الموضوعية أن لا ننكر دور الفرد في المجتمع في إحياء لغته عن طريق الممارسة والاستعمال، لإنّ النصوص القانونية المجبرة لتعميم استخدام اللغة في أي مجتمع من المجتمعات لا يمكن ان تفي بالغاية، إذا ما لم تقابلها منظومة وعي حيّة منتجة تشجّع على تمسك الناشئة بلغتها الأم، وطالما أنّ منظومة الوعي في العالم العربية تهتم بالاستهلاك أكثر من الانتاج، فإنّ هذا من شانه ان يعقّد وضع الغة العربية بين ابنائها أكثر من أن يجعلها في أريحية وعافية.

يظلّ المناخ المحيط بالعربية في الجزائر لا يشجّع على تعلّمها وانتشارها، ولا يؤهلّها إلى موضع الريّادة بين أبنائها ناهيك بين منافسيها و أعدائها التاريخيين والطبيعيين، ولا يبدو مثل هذا الوضع غريبا إذا ما سلّمنا بالمنطق الذي يجيز لكل حضارة إنسانية أن تهيئ لنفسها ما يضمن لها الديمومة والهيمنة ويفرض غلبتها على ثقافات الأمم الأخرى التي تجاورها، من منطلق أنّ انّ القوة دول بين الأمم، وتلك سنة الله ،فطر الناس عليها.

اللغة مرتبطة بالذات ، والدفاع عن الذات في زمن تتصارع فيه القوى الكبرى من اجل الريادة والهيمنة يقتضي الدفاع عن اللغة ، باعتبار" أنّ اللغة في أساسها تعبير عن الذات ، و اداة خلقونتيجة حدس ينبغي أن يجد التعبير "(مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد الادبي، ص:146).

اللغة العربية والمخاطر المحيطة:

إن العربية هي لغة القرآن ومعجزة الاسلام الخالدة، ولطالما أنّ هذا الكتاب تعهد الله بحفظه، إذ يقول تعالى: (إنّا نحن نزّلنا الذكرى و إنّا له لحافظون)(الحجر:9)،فإنّ اللغة العربية تظلّ مرمى الحملات المغرضة التي تستهدف الدين والعقيدة الاسلامية، هذه الحملات التي لا تتوانى في إيجاد الخطط

والاستراتيجيات التي من شأنها أن تقف حائلا أمام انتشار الاسلام في المعمورة ومانعا لانتشار العربية ومعطّلا لمفعولها الحيوي في الفكر والاقتصاد و والاتصال، متخذة الأعذار المختلفة تارة بدعوى أن العربية لغة دين لا تصلح للدنيا ومتطلّبات العصر ، وتارة أخرى أنّها لا تقوى على مزامنة عصر تطوّر العلوم ، و كلّها دعاوى تستهدف التقليل من شأن اللغة العربية وقدرتها الحقيقية في مواكبة العصر، وهي اتهامات مصدرها نخب من العالم الغربي التي لا يعجبها أن تكون اللغة العربية في أحسن أحوالها، ونخب من أبناء العربية ذاتها الذين تمكّنت منهم ثقافة الغرب وقولبتهم ضمن سياجها، لا يكادون أن يتجاوزوا مقولاته وأبعاده، كما لو أنّ التفكير الانساني توقف عند الغرب لا يمكن ان يتجاوزه إلى ما سواه.

إنّه اتجاه يسعى لتعطيل نشاط اللغة العربية في السوق العالمية ومحاصرتها، وفي ذلك محاصرة للعقيدة الاسلامية ولمنظومة القيم التي تطرحها.

يجدر في هذا السياق تسجيل بعض الاستثناءات المتمثلة في بعض الاصوات الغربية الموضوعية التي تنشد الحقيقة ، وإن تنافت مع نزعتها المركزية، وهي أصوات لم تغبط حقّ العربية لغة وتاريخا، مقدّمة الشهادة تلو الشهادة عن كفاءة اللغة العربية ومرونة طبيعتها وملاءمتها للعصر ومتطلّبات الراهن، فهذا العالم الفرنسي " مارسي" يقرّ بتكيّف اللغة العربية من حيث خصائصها مع طرائق التعليم الحديثة مؤكدا:" من السهل جدا تعلّم أصول اللغة العربية ، فقواعدها التي تظهر معقّدة لأول نظرة هي قياسية ومضبوطة بشكل عجيب لا يكاد يصدّق، فذو الذهن المتوسط يستطيع تحصيلها بأشهر قليلة وبجهد معتدل"(عارف النكدي، 1969مجلّة مجمع اللغة العربية،(دمشق) ، ص:16).

أما المستشرقة الالمانية "آنا ماري شيمل" صاحبة المقدّمة الفذّة للترجمة الالمانية لمعاني القرآن الكريم فإنها تعجب بالإيقاع الساحر للّغة العربية، مصرّحة:" واللغة العربية لغة موسيقية للغاية، ولا استطيع أن أقول إلاّ أنّها لابد أن تكون لغة أهل الجنّة"(عارف النكدي، مجلّة مجمع اللغة العربية (دمشق)، ،ص:46).ويفهم من قول المستشرقة الالمانية أنّ العربية تمتلك سلطة على الاذن عبر ما تتمتّع به من نغم في حروفها ومخارج أصواتها، ما جعلها لغة ايقاعية ترتاح لها الأذن وتطرب لها الروح.

إنّها سمة أساسية حاصلة عن الطاقة البديعية الكامنة في اللغة العربية منذ القديم، ولعلّ هذا ما قصده ابن خلدون عندما تحدّث في مقدمته عن عمق صلة العربي بلغته قائلا:" والملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحقّ الملكات وأوضحها بيانا عن المقاصد(ابن خلدون: المقدمة، ص:546)، في حين يقرّ ابن فارس اللغوي الفذّ أنها أفضل أقدر اللغات استيعابا لغيرها من اللغات الاخرى إذ" لا يقدر أحد من التراجم أن

ينقل القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى ، كما نقل الأنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزابور وسائر كتب الله عزّ وجلّ إلى العربية، والسبب في ذلك يعود إلى أنّ العجم لم تتسع في المجاز اتّساع العرب"(ابن فارس، الصاحبي،ص:13).

واقع الحال هذا يقودنا إلى لبّ المشكلة المحيطة باللغة العربية في الجزائر، وهي الفكرة التي آثرنا أن نتناولها في هذه المشاركة المتواضعة حول وضع اللغة العربية بين مؤثرات الثقافة الفرنسية من جهة وموقف السلطات الرسمية من مسألة تعميمها وترقيتها لتقوى على الصمود في وجه الغزو والهيمنة الثقافية الوافدة من الضفة الاخرى للبحر الابيض المتوسط، وهي مشكلة مرتبطة بجملة من العناصر تتمحور أساسا حول:

- اللغة العربية ومحاولات الاستدمار الفرنسي في طمس الهوية الجزائرية

- اللغة العربية بين استقلال الحقول وتبعية العقول في عصر الدولة الجزائرية الحديثة

-جهود الجهات الرسمية في الجزائر في الدفاع عن اللغة العربية واستعادة مكانتها الطبيعية في الأمة.

- التّحديات الراهنة التي تواجه اللغة العربية في الجزائر .

1-اللغة العربية ومحاولات فرنسا في طمس معالم الهوية الجزائرية:

معلوم إن ما سعت إليه فرنسا منذ أن حطّت بأقدامها على ارض الجزائرهو سعيها المستميت في طمس هوية الجزائري وجعله قيمة ممتدة للثقافة الفرنسية لغة وفكرا وجغرافيا ، لذلك فإنّ أوّل سبب في إضعاف اللغة العربية في الجزائر والتقليل من ارتباط أبناء الجزائر بلغتهم إنّما يعود – في الاساس – إلى المحاولات المبكّرة التي اعتمدتها فرنسا سعيا لوضع حاجز منيع بين الجزائر ورصيدها الحضاري ، ولعلّ ما قامت به في الحقبة الممتدة بين:1830-1845 من إجراءات يكفي أن يكشف عن طبيعة الخطر الذي تعرضت له العربية من قبل المستعمر.

- لقد تعرضت معالم الدولة الجزائرية إلى المحو والزوال عبر ما سعت اليه فرنسا من عزل للجزائر عن محيطها الطبيعي والعربي والافريقي، فعمدت إلى تكثيف الاستيطان، حتى تتماهى الصورة البشرية في الجزائر مع صورة الأوروبي الوافد، ولا يخفى على عاقل أنّ ظاهرة الاستيطان في كلّ حقب التاريخ تمتلك عناصر القوة والهيمنة الغالبة والنافّذة، بل يعدّ الاستيطان أفضل الوسائل في تشكيل الصورة الاعم للسكان ضمن فضاء جغرافي محدّد، ما كان له أثره العميق في إضعاف التداول باللسان العربي ، وحصر اللغة العربية في زوايا مغلقة ، وعيا بخطورة تأثير اللغة العربية

على المجتمع ، ذلك لأنّ" اللغة لا تنكشف من داخلها فحسب، بل تنكشف أيضا في علاقاتها بالمتكلّم والمجتمع"(مصطفى ناصف، 1997، محاورات مع النثر العربي،ص:17) .

- إنّ إلحاق الجزائر إداريا بفرنسا واستصدار قرارفي سنة 1834 يقضي بأجنبية اللغة العربية في الجزائر كانت له خطورته الحقيقية في إحداث ضربة قاسمة في بناء الهوية الجزائرية ، إذ مكّن للفرنسية على مستوى الأرض في مؤسسات التعليم ومؤسسات العمل وغيرها ، ما جعل العربية لا تراوح الكتاتيب والمساجد ، وهو إجراء كان المستعمر يروم من خلاله افراغ وعاء الاستخدام اللغوي للعربية بين الجزائريين والتقليل من منسوبه.

-الاجراء الآخر الذي كان أكثر قساوة وايلاما على مستقبل العربية ، تمثّل في سياسة تهجير النخبة المثقّفة في الجزائر من أرضها حتّى لا يمتد أثرها إلى الناشئة من ابناء الوطن، وحتّى لا يصل مددها إلى اللغة العربية التي أضحت طريحة الفراش، وتذكر بعض الدراسات أن فرنسا توسلت بفتوى تقضي بعدم جواز بقاء المسلم تحت حكم الأجنبي الكافر مستغلة تمسّك الجزائريين بعقيدتهم وهو حقّ أريد به باطلا أثار نخوة النّخبة المثقّفة وجعلها تخرج من أرضها متوجّهة إلى أقطارعربية شقيقة تاركة المجتمع والوطن للمستعمر يقولبه ثقافيا مع ما يتوافق وأهدافه الاستعمارية، ولو أنّ هذه النّخبة تفطّنت لما كان يحاك ضد اللغة العربية وظلّت مرابطة في أرضها لمنحت للغة العربية حصانة اكثر ومقاومة أشدّ.

مقاومة مساعي فرنسا التغريبية في عهد المقاومةوالكفاح:

لئن كانت نسبة معتبرة من النخبة المثقّفة ذات الصّلة المباشرة باللغة العربية تعلّما وثقافة قد وقعت في شباك الشراك الذي أحكمت سلطة المستعمرنصبه، حتى تغادر الأرض، فإنّ نخبة من الطبقة السياسية المبكرة في الجزائر المقاومة ، ظلّت واعية بالخطر المحدق بالعربية في الجزائر ، وكانت حريصة في كل خطواتها على الدفاع المستميت عن العربية وعيا منها أنّ استقلال اللّغة إنّما هو رأس الاستقلال الذي كانت ترومه.

إنّ العودة إلى أدبيات الأحزاب الوطنية الجزائرية الاولى يؤكّد وعيها بمكانة العربية ضمن سياق السيّادة الوطنية التي تناضل من أجله، فهذا حزب نجم شمال إفريقيا بعد سنة من إنشائه يعقد مؤتمرا ببروكسل سنة 1927 مناديا بإنشاء المدارس باللغة العربية مقرّا ضرورة تعليم اللغة العربية إجباريا. وهذاأيضا حزب الشعب في مؤتمره العام سنة 1937 يطالب باستصدار مرسوم يجعل تعلّم

اللغة العربية إجباريا على غرار الدوّل المجاورة. وكان شعاره لا يختلف عن شعار جمعية العلماء المسلمين ، و إن دلّ ذلك على شيئ إنّما يدلّ على الوعي المشترك بالخطر الذي يتهدّد اللغة العربية في أرضها، والذي يستهدف إسقاط الغة من رباط الهوية الجزائرية ، ما يخلق حاجزا منيعا بين الأمة ودينها ، ولربّما هذا ما جعل كثيرا من أفراد جمعية العلماء المسلمين يختارون نشاط التعليم أكثر من أيّ اهتمام آخر حرصا على إعداد الناشئة وتمكينهم من لغتهم ، لأنّ الفكاك من اللغة فكاك من الدين والعقيدة.

إنّ هذا الوضع المأساوي الذي عانت منه العربية إبان الاستعمار جعل كثيرا من أهل أبناء الأمة يتوقعون المخاطر والتحدّيات التي تواجهها اللّغة العربية بعد الاستقلال، ماجعلهم يواصلون الجهد في التنبيه إلى المخاطر التي تتربص بها، مستشرفين آفاقها بعد الاستقلال، فهذا البشير الأبراهيمي يكتب مقالا سنة 1961 لمؤتمر التعريب في الرباط مصرّحا فيه بقساوة التجربة التي عاشتها اللغة العربية في كنف الاستعمار مؤكدا:" ترك فينا الاستعمار ندوبا يعسر محوها"(مجلّة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، مؤتمر التعريب) مشيرا في السياق ذاته أنّ العقول التي عهد اليها الاستعمار مهمّة تحطيم الهوية الجزائرية ستحل محلّه بعد خروجه مهزوما مدحورا، مؤكّدا أن هذه الفئة تتمنّى لو أنها تصاب بعاهة واصل بن عطاء حتى لا تنطق الراء العربية أصيلة ، بل تخرجها على الطريقة البارزية، وعلى ما في في هذه النظرة المستشرفة لواقع الحال في الجزائر – على أيام الابراهيمي- من تهكّم وسخرية ، فإنّ هذا الواقع ينطبق على الجزائر وعلى كثير من الاوطان العربية التي لا تزال فيها بعض النخب تميل إلى هجنة العربية على حساب صفائها ونقاوتها، كما لو أنّ قدر اللفظة العربية مرهون باللّفظة الأجنبية ، وهو أسلوب وطريقة مكّنت للدارجة على حساب اللغة العربية في عقر دارها.

استقلال اللغة مظهر لاستقلال الذات العربية:

إنّ عدم الاستقلال التّام للغة في الاوطان العربية يجعل استقلال هذه الاوطان محل مساءلة مشروعة، إذ كيف يعقل ان تحرّر الاوطان جغرافيتها من قبضة المستعمر، وتعجز عن تحرير لسانها ، حال فكرها ورافد رؤاها نحو المستقبل؟

هذا الواقع سعت إلى بسطه الدول المستعمرة للأقطار العربية في القرن التاسع عشر ما جعلها تفرض هيمنتها عبر محاصرتها للغة العربية في هذه الاوطان عبر مشاريع استراتيجية تستهدف منظوماتها التربوية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، إذ لا تتوان لحظة في جعل اللغة الفرنسية أو الانجليزية موضع الريادة بين أبناء هذه الأقطار استخداما و اهتماما ، و على الرّغم من الوعي المقاوم

لهذا الخطر المحدق بالعربية ومحاولات الاستمساك بحبلها يظلّ الهجوم المضاد مستمرا . يكفينا دليلا عن هذه الحالة وضع الجزائر؛ فالبرغم من سياسة التعريب المنتهجة في عهد الرئيس هواري بومدين التي سعت إلى تعميم اللغة العربية استخداما في الإدارات العمومية ومؤسسات التعليم ومختلف شؤون الحياة – على صعوبة المرحلة التي استوعبت هذا المشروع- فإنّ الفرنسية سرعان ما حقّقت قفزة نوعية عبر الهجوم المضاد في سياق حياة الجزائريين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، وبمجرد أن استبشر الجزائريون خيرا بعودة العربية إلى ميدان الاعلام والتعليم وغيرها حتّى اخذت الفرنسية موقعها ضمن المنظومة التربوية والثقافية .. بدعوى أنّ التواصل مع العالم يقضي الاستمساك باللغة الفرنسية ، في حين أنّ قطيعة معرفية قد حصلت نتيجة صراع المدّ والجزر ين العربية والفرنسية، انعكس مظهره على الناشئة المتعلّمة التي وجدت نفسها -مجرد انتقالها الى مرحلة التعليم الجامعي - ضمن مناخ ثقافي مغاير مغايرة جذرية لما نشأت عليه في سياق مراحل التعليم المبكّرة، وأعني طور الابتدائي والمتوسط والثانوي، وهو وضع اقتضى إعادة اندماج و تأهيل ضمن متطلبات المرحلة الجديدة ، ما افقد الأجيال المتعاقبة مكتسباتها القبلية،وشتّت إرادتها وقوّة تركيزها على الغاية .

وضع أهدر فيه كثير من الوقت والجهد، كان يتعيّن أ يصرف في ناحية اخرى من نواحي البذل والعطاء لترقية اللغة وفرض سيادتها على الأرض.

2- اللغة العربية بين استقلال الحقول وتبعية العقول في عصر الدولة الجزائرية الحديثة:

لا يختلف إثنان عن الحالة المعقّدة التي تعيشها العربية في الجزائر، وهي حالة مستعصية تستدعي جهودا لا تنقطع ، وبعد نظر لا يكلّ، ذلك لانّ التعددّ الإثني والثقافي في الجزائر بين قبائل وعرب و أمازيغ وسكان شمال وسكان جنوب يجعل من الحالة الجزائرية موضع الاهتمام، يضاف إلى هذا بعض الندوب التي تركتها فرنسا و التي لا تزال غضّة بارزة ، وكلّها علامات تنبئ بغموض مستقبل العربية في الجزائر.

قدمت الجزائر الغالي والنفيس من أجل استعادة سيادتها على الأرض وعلى الجغرافيا،بعد 132 عام من الاحتلال والتشويه وطمس لمعالم الشخصية الجزائرية، لتستقبل عهدا جديدا يتحدث فيه أبناؤها كلمة عربية منمّقة بالفرنسية ، وهو مظهر نكاد نلمسه في كل شرائح المجتمع ، باستثناء فئة الشيوخ الكبار الذي لا يزالون أكثر استمساكا بالعربية العامية الجزائري الأصيل وعلى الرغم مما يبذل من جهود من قبل مراكز القرار في البلاد، إن على مستوى التشريعات أوالنصوص القانونية المحددة لتوجه الجزائر عقيدة ودستورا وخيارات جماهيرية، فإنّ الواقع المعيش يكشف

عن قطيعة بين جيل الشباب، وهو النسبة الاغلب في دولة مثل الجزائر، وبين باللغة العربية المحدّدة لعروبته و أصالته، ما يضع استقلال الجزائر الثقافي واللغوي والحضاري ضمن سياق الاستفهام، وهو وضع يؤكّد على أنّ استقلال الحقول(الجغرافيا) لا يؤدي بالضرورة إلى استقلال الذات الحضارية.

إنّ نظرة سريعة على شوارع المدن و أسمائها، وعلامات الطرق المؤدية إليها، والفضاءات الاشهارية والدعاية ،بل وإطلالة سريعة على اللغة المهيمنة في الجامعات ومراكز البحث ، ولغة التعامل في البنوك والمستشفياتـ ، وفي إدارات الوزارات المختلفة، تكشف عن صورة ناطقة حول التبعية لفرنسا عدوّ الأمس وناهبة خيرات الأمة وثرواتها، ومعنى هذا أن استقلال الإرادات والعقول لم يكتمل بعد ، و أنّ الأمة في حاجة إلى منظومة وعي حقيقية تراهن على أبناء الأرض وعلى ثقافة الأمة الجزائرية قبل مراهنتها على أي شيء آخر في كل المشاريع النهضوية التي ترومها ، و إلاّ ستظلّ الجهود المبذولة بعيدة عن الغرض المنشود، ويظلّ المسعى الذي تشرئب إليه الأعناق بعيد المنال.

3-جهود الجهات الرسمية في الجزائرفي الدفاع عن اللغة العربية و استعادة مكانتها الطبيعية

لا أحد ينكرما تجود به الدولة الجزائرية على أبنائها من تعليم مجاني في كل الأطوار وسكن اجتماعي وصحة مجانية، وغيرها من الخيرات التي تزخر بها أرض الجزائر، لكن الذي يعمّق صلة الأبناء بلغتهم ووطنهم لا تزال بوادره لم تظهر في الوقت الراهن ، والوقائع تكشف أنّ شبابا في ريعان الشباب بالمئات يفضلون المغامرة في عرض البحر ومجاهيله توقا إلى الضفّة الأخرى على البقاء في أرض الوطن، وهي علامة يتوجّب على أهل الاختصاص في علم الاجتماع وعلى النفس والاستشراف..وغيرها من العلوم التي تنشد قراءة الحقيقة أن تفك شفراتها.

إن اللغة جزء من كيان الأمة المعنوي الذي يستدعي رعاية وتنمية عميقة ودقيقة في الآن نفسه، ليس في اللحظات الاخيرة التي تسبق العاصفة، و إنّما في الاوقات التي يتطلّبها الإعداد والعناية، وليس شيئ يخدم اللغة ويجعلها بمثابة المقدس في عيون ناشئتها غير جعلها غاية الغايات ومنتهى الطموح في المراحل الأولى من التعليم، و أن تعضد هذه الغاية بمراكز الرعاية والبحث المستنير الذي يستهدف شروط تحصيلها و آفاق استخدامها، و يرصد معيقات انطلاقتها في الفضاءات القريبة والبعيدة، ثمّ مدار الأمر ،بعد ذلك كلّه، إنّما هو العمل على تعلّق أبنائها بها سماعا وكتابة وشعورا ودفاعا ساعة الشدائد ساعة الخطر الداهم.

إنّما هو متوفر في الجزائر من مراكز البحث التي تضطلع بخدمة اللغة العربيةوفق المنظور الذي يحرص على كيان الامة، كما أشرنا سلفا، لا يتعدى مركزا واحدا، وهو تابع لرئاسة الجمهورية في البلاد، و أعني به : "مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية"، فهل يقوى مثل هذا المركز على مجابهة التّحديات التي تواجهها اللغة العربية في زمن القرن الواحد والعشرين في دولة ظلت تحت سلطة الاستعمار الفرنسي لأكثر من 130 سنة من الخسف والحذف والمحو والتزييف لكل ما هو أصيل في هوية الجزائر الحضارية؟.

4-اللغة العربية وتحدّيات الراهن:

العولمة الثقافية:

إذا كانت محاولات الدول المستعمرة لبعض الأقطار العربية لا تزال تنشد ابقاء تبعية الاقطار العربية إليها ثقافيا واقتصاديا عبر إضعاف حسّ ابنائها الوطني والقومي عبر المحاولات التي استعرضناها آنفا، ما جعل لغتهم العربية ميّتة في مقابل حياة لغات الدول الكبرى ، فإنّ عصر العولمة الذي نعيشه لأصدق مثال عن طبيعة التحدّيات الكبيرة التي تواجهها العربية اليوم.

إنّ العولمة في أبسط معانيها – تجنّبا للوقوع في معركة المفاهيم- إنّما تعني سيادة النموذج الغالب المهيمن في الثقافة والاقتصاد والسياسة، واكتساح لكلّ الحدود والخصوصيات والحواجز ، ومعنى هذا أنّ العولمة تقضي بهيمنة المركز على الهامش وتقول باستمرارية سلطة الغالب على المغلوب، وتتجسّد بصورة أكثر وضوحا في اكتساح ثقافة الشمال لثقافة الجنوب في هذا الكون الذي ضحى أقلّ من قرية صغيرة، نتيجة لتطورأدوات الاتصال.

إنّ الوضع الراهن يقتضي أن يكون أبناء اللّغة العربية أكثر وعيا بما يحاك ضدهم في الخفاء والعلن، و اكثر تيقضا للمسالك التي يساقون إليها نو العاصفة الهوجاء، فهم مطالبون أكثر من أيّ وقت مضى بفعل الكثير، و ابتداء أن:

يعزّزوا الثقة بذخيرة لغتهم العربية وتجديد ايمانهم بقدرتها على مواكبة العصر ومتطلباته ، وليس ثمّة من خيار لاستدراك التأخر الحاصل في رواج العربية من جهة وتضييق الفجوة بين العربية بصفتها لغة والذات الحضارية العربية الاسلامية من ناحية أخرى غير تكثيف استخدامها والاحساس بمسؤولية ترقيتها سماعا وكتابة.

إنّ التحجّج بدافع عدم مواكبة العربية للتقدّم الحضاري والمعرفي الحاصل في العالم وعدم قدرتها على التواصل مع النّمط السريع لوتيرة الحياة في الاقتصاد والاتصال ، إنّما يكشف عن اهتزاز في الثقة بقدرة اللغة في استيعاب هذا السيل الجارف من التطور المعرفي والتكنولوجي، و إذا نظرنا إلى واقع اللغة الصينية الموحّدة (وليس الموحدة) ، الموحّدة لارادة ابنائها في التقدّم والاستمساك بها في صناعة السوق العالمية، على تعدّد لهجاتها ، وكذلك إذا ما نظرنا إلى لغة كوريا الجنوبية وإلى العبرية في دولة اسرائيل ، أمكن لنا اكتشاف هشاشة التحجّج الزائف الذي يقضي بعدم مسايرة العربية لطبيعة العصرالراهن.، ذلك لأنّ كل هذه اللهجات واللغات لم تكن لترقى إلى المستو البنائي الذي يميّز العربية عن باقي اللغات العالمية الأخرى في نحوها وصرفها وبلاغتها، ومع ذلك تظل هذه اللغات موضع الريادة في العالم، كما كانت العربية يوما رائدة لأنها كانت حاملة للعلم والتديّن الصحيح وانفتاحا على ثقافات الأمم وعلومها دون أي شعور بالنقص والقصور.

أمام هذا الحال ليس من درس يتوجّب أن تعاد قراءته في تاريخ العربية غير طور الترجمة وجهود العلماء العرب الاوائل في التر جمة إلى اللغة العربية ، انفتاحا على ثقافات الأمم الأخرى ورغبة في إبقاء العربية حيّة في مجال الاستخدام والتحيين والتكييف.

إنّ التاريخ يشهد أن الخليفة المأمون كان يكافؤالمترجمين في عصره بوزن ما يترجمونه ذهبا، ما يدلّ بعمق على حرصه- في سياق مشروع بيت الحكمة- على المحافظة على خصوبة العربية وجعلها وعاء يتّسع للغات العالم وعلومه، وذاك ما يزيد منسوبها ويحقّق رواجها.

إنّ اللغة على كثرة ميزاتها الاشتقاقية والترادفية والدلائلية والمعجمية لا يمكن أن تفيد إذا ما أبعدت عن حيّز التداول والاستخدام في شتّى مناحي الحياة، وهي حقيقة أكّدت عليها الدراسات المنضوية تحت فرع اللسانيات التداولية ، التي تركّز على " استعمال اللغة في الخطاب" (فرانسواز ارمينيكو،1986، المقاربة التداولية، ص:54).

حياة اللغة مرة اخرى كامنة في استخدامها ، لذلك شبهها العربي ولد خليفة(رئيس المجلس الأعلى للغة العربية في الجزائر) في إحدى مداخلاته حول اللغة العربية، أنّها بمثابة العملة التي يمكن ان تصاب بالتضخّم إذا ما لم يتم تداولها وتنميتها .

ويترتّب عن هذه الحقيقة ضرورة إعادة تفعيل فعل الترجمة ودورها الحضاري في التحاور بين اللغات و إفادتها من بعضها البعض، حتى يتحققّ التوازن بين اللغات المستخدمة في القطر الواحد والأمة الواحدة و تضمحلّ هيمنة لغة الثقافة الوافدة على منشإ اللغة الوطنية.

الترجمة مسلك لإعادة النفس الحيوي للغة العربية:

إنّ تفعيل التّرجمة إلى العربية في الوطن العربي كفيل بأن يعمّق الصّلة بينها وبين ابنائها لاسيّما اولئك المشتغلون في حقول المعرفة الانسانية المختلفة، إذ يجعل العربية موضع الحاجة والاستخدام طالما أنّها توفّر فرصة تحصيل معارف العصر وثقافاته، وتفعيل اللغة في هذا الاتجاه كي تظلّ حيّة معطاءة يستدعي توافر ثلاثة شروط أساسية محورية لا يمكن الاستغناء عن واحد منها:

1- تعميق الصلة الروحية بين اللغة العربية والعقيدة الاسلامية من منطلق انّ القرآن الكريم هو من وحّد اللهجات العربية ضمن عربية تمثّل مشترك القبائل العربية المختلفة ، وهذا المشترك هو الكفيل بضمان البقاء والاستمرارالحضاريين، وهو مشترك يثبت تميّز الأمّة العربية عن باقي الأمم الأخرى، وقد انتبه المستشرق الالماني كارل بروكلمان إلى حقيقة العلاقة الوطيدة والروحية بين المسلم ولغته العربية وفضل القرآن الكريم في جعل العربية وقفا عليه حين يقول:" بلغت العربية بفضل القرآن من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أيّ لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعا مؤمنون بأنّ العربية وحدها اللسان الذي أحلّ لهم أن يستعملوه في صلاتهم.."(من قضايا اللغة العربية المعاصرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص:247)

إنّ تميّز اللغة العربية ضمان لخصوصيتها، لأنّ الخصوصية في نهاية المطاف هي نتيجة التميّز، ونجد في القرآن الكريم إشارة إلى ضرورة الحفاظ على تميّز الأمة (يا أيّها النّاس إناّ خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل للتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم)(الحجرات:13).

التعارف يفهم في ظلّ متّسع التمايز بين الأمم والثقافات المختلفة، أمّا التماهي في ثقافات الأمم الاخرى واتباعها يسقط معنى التعارف، ويلغي الخصوصية التي اخصّ بها الاسلام العربية لغة وثقافة وانتماء.

اللغة العربية ومحاولات استفراغ طاقتها الحيوية:

من التّحديات التي تواجهها اللغة العربية في أقطارها هي محاولة استفراغ طاقتها الحيوية في الصمود، ويتجلّى ذلك في المحاولات المغرضة التي تفضّل اعتماد اللّغات الاجنبية بدعوى ضمان التواصل مع العالم، وهو واقع لا ينمّ إلا عن عن حقّ اريد به باطلا، لأنّ التواصل الحقيقي مع الأمم وحوار الثقافات يشترط، فيما يشترطه، التكافؤ بين الاطراف المعنية واستقلال خصوصيات كل طرف عن الآخر في خصوصياته الثقافية والمرجعية لكي تتحقّق الإفادة المتبادلة، لا أن تحلّ اللغة

الاجنبية محلّ اللغة العربية بدعوى الهوّة المعرفية الحاصلة بين العربية لغة، وما وصل اليه العلم من تطوّر.

هي نظرة تهدف إلى التقليل من كفاءة وكفاية اللغة العربية في استيعاب تطوّرات العصر ، متناسية ما كان لهذه اللغة من عزّ وحضور في التاريخ، إذ كانت اللغة العربية في موضع اللغة الانجليزية اليوم إن لم نقل أكثر و أوسع نطاقا، ما جعل أبو الحسن الندوي الهندي يصف مكانتها قائلا:"خضعت للغتهم اللّغات، ولثقافتهم الثقافات، ولحضارتهم الحضارات، فكانت لغتهم هي لغة العلم و التأليف في العالم المتمدّن من أقصاه إلى اقصاه، وهي اللغة المقدّسة الحبيبة التي يؤثرها الناس على لغاتهم التي نشأوا عليها، ويؤلفون فيها اعظم مؤلفاتهم و أحبّ مؤلفاتهم، ويتقنونها كأبناء أهلها وأحسن، وينبغ فيها أدباء ومؤلفون يخضع لهم المثقفون في العالم العربي، ويقرّ بفضلهم وإمامتهم أدباء العرب ونقادهم"(أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين،ص:255)

إنّ التواصل الايجابي الذي نقصده نجد له شاهدا فيما قام به التّجار المسلمون الاوائل من نقل للاسلام ومنظومته القيمية إلى شرق آسيا في تبادلاتهم التجارية ، التي أسهمت في نشر لغتهم ورفعت من منسوب استخدامها العالمي في عصرهم. ونجد له شاهدا في كثرة المؤلفات العربية التي كانت بمثابة المرتكزات الأساسية لنهضة أوروبا، وتحرّرها من ظلمات القرون الوسطى، وهي حقيقة يعترف بعض علماء الغرب من ذلك تأكيد المستشرق الالماني" فرنباغ " على خصوبة العربية وغناها وفضلها على تاريخ العالم، إذ يقول:" ليست لغة العرب أغنى لغات العالم فحسب، بل إن الذين نبغوا في التأليف بها لا يكاد يأتي عليهم العدّ، وإنّ اختلافنا عنهم في الزمان والسجايا والأخلاق أقام بيننا- نحن الغرباء عن العربية- وبين ما ألّفوه حجابا لا يتبيّن ما وراءه إلاّ بصعوبة"(أنور الجندي الفصحى لغة القرآن،ص:303).

لم تكن- إذن- اللغة العربية في يوم من الأيام عبئا على العلوم وتطوّر المجتمعات، فقد كانت أداة طيّعة في أيدي غير أبنائها ، وكانت مطيّتهم في تحصيل مختلف العلوم، بل في تطوير علومها ذاتها، ويكفي أن نذكر:سيباويه الفارسي(ت180ه)، و ابن قتيبة الدينوري(ت276ه)، و أبي علي الفارسي(ت377ه)، و ابن فارس الرازي(ت395ه)، وعبد القاهر الجرجاني(ت471ه)، والزمخشري(ت538ه) وغيرهم كثير، وهي حقيقة قد ترفد الأمل من جديد في نفوس أبناء الامة العربية علّهم ينطلقون بالعربية نحو السؤدد و الابتكار.

إنّ استدراك التأخّر الحاصل الذي شهدته اللغة العربية على صعيد الرواج في ميادين الحياة المختلفة، لا سيما في الاقتصاد و الإتصال و الثقافة.. وغيرها من مناحي الحياة التي تحتكرها لغات

الدوّل المتطوّرة، يتطلبّ تكثيف جهد كل أبنائها المخلصين في شتّى ميادين التخصّص، من هندسة لغوية، ومعلوماتية ..، بقصد إيجاد بدائل جديدة تنوب عن الطرق التقليدية التي تدرّس بها العربية، والتي اضحت منفّرة للناشئة، وهي ظاهرة تيقضت إليها الدول الكبرى مستغلة ما حققته من تقدّم في مجال المعلوماتية لتقيم به خلل لغاتها، وكان لها في ذلك الصلاح والنجاح.

لئن كانت هذه الدول قد وجدت ما ينفع في التقنية المعاصرة ، فإنّ اللغة العربية لأكثر ملاءمة وتكيّفا مع الهندسة اللغوية واللسانيات الحاسوبية فهي كما يقول" وليم ورل":"من اللين والمرونة، ما يمكنّها من التكيّف وفق مقتضيات هذا العصر، وهي لم تتقهقرفيما مضى أمام أيّة لغة أخرى من اللغات التي احتكت بها، وستحافظ على كيانها في المستقبل، كما حافظت عليه في الماضي"(انور الجندي، اللغة العربية بين حماتها وخصومها،ص:28).

مرة أخرى، لا يستقيم حال اللغة العربية في عصرنا الرّاهن إلا بما استقامت به أيام عزّها ومجدها؛ وقتما كانت حاملة لعلم و فكرونهضة ، وجدت عبرهم دربها إلى قلوب وعقول أبناء الأمم القريبة والبعيدة، فرأس الأمر كلّه في صلاح شأن اللغة العربية هوفي تحررّالفكر العربي من قيود التقليد والتبعية العمياء، و أن يعقد أبناء العربية عزمهم في تعلّم لغتهم لا تعّلّم فضلى، و إنما تعلّم حاجة وضرورة استخدام، و إذ ذاك فقط تورق في حدائق أرواحهم وتزهر.

د.حكيم دهيمي

الجزائر

مصادر المداخلة ومراجعها:

القرآن الكريم

1-مصطفى ناصف، نظرية المعنى في التقد العربي، دار الاندلس،بيروت لبنان

2-المهدي فضل الله، 1985، مدخل غلى علم المنطق، دار الطليعة للطباعة والنشر

3-طه حسين،1968،في الادب الجاهلي، دار المعارف،ط:9،القاهرة

4-مرزوق بن صنيتان بن تنباك ،2005، اللغة العربية في القرن الواحد والعشرين في المؤسسات التعليمية في المملكة العربية السعودية، الواقع والتحديات و استشراف المستقبل.

5-جريدة الخبر اليومية، عدد 2013/12/21، الجزائر

6-مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي،دار الاندلس، بيروت لبنان.

7-عارف النكدي،1969، مجلة مجمع اللغة العربية،المجلد 44، ج 4، دمشق، سوريا

8-ابن خلدون، ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المطبعة الشرقية ، القاهرة.

9- أبو الحسن احمد بن فارس الرازي، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامهم، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان.

10-مصطفى ناصف، 1997،محاوت مع التثر العربي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، الكويت.

11-مجلة كلية الآداب، مؤتمر التعريب، جامعة الاسكندرية

12-فرانسواز ارمينيكو،1986،المقاربة التداولية،مركز الاقتصاد الدولي ، الرياض. المملكة العربية السعودية.

13-قضايا اللغة العربية المعاصرة، المنظمة العربية للتربة والثقافة والعلوم.

14-أبو الحسن الندوي،ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، طبعة الايمان، المنصورة.

15-أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، دار الكتاب اللبناني، 1982

16-أنور الجندي، اللغة العربية بين حماتها وخصومها، مطبعة الرسالة، القاهرة.